# المسوغات العقلية للبلاغة

نريد في هذه التوطئة أن نرى ما بين البلاغة والأحكام العقلية من روابط ثابتة . والذي يحدونا الى ذلك ما نشعر به من إعراض أهل زماننا عن المحسنات البيانية وحسبانهم اياها من الطرائق الرجعية . ولعلهم معذورون في ذلك فان البلاغة منذ القرن الرابع الهجري تحولت عن منهجها الصحيح الى منهج الصناعة المتكلفة . فأصبح البديع غاية منشودة لذاتها وأخذ أرباب الأقلام يتبارون في هذه الصناعة ويبذلون جهودهم في إتقانها والتوفر على غرائبها . وعلى ذلك جرى روّاد النهضة اللغوية الحديثة في القرن الماضي مما أدّى في هذا القرن الحاضر الى فعل انعكاسي هدفه هدم الزخارف البديعية والأخذ بأسباب السهولة الانشائية .

على أن هذا الفعل الانعكاسي لا يعني انهيار البلاغة والقضاء على محسنات الكلام . فالأسس البلاغية عامّة في آداب الأمم تشترك فيها أكثر اللغات الراقية . بل هي متصلة بطبيعة النفس البشرية اتصالاً وثيقاً يحول دون تجريد الكلام منها . وقد أصاب ابن الأثير إذ قال[1] : إن علم البيان ليس كالنحو أحكاماً نقبلها كما وضعت لتمييز الخطأ من الصواب ، « لأنّه ( أي البيان ) استنبط بالنظر ، وقضية العقل من غير واضع اللغة ، ولم يفتقر فيه الى التوقيف ، بل أخذت ألفاظ ومعان على هيأة مخصوصة وحكم لها العقل بمزية من الحسن لا يشاركها فيها غيرها . فان كلّ عارف بأسرار الكلام من أي لغة كانت يعلم أن إخراج المعاني في ألفاظ رائعة حسنة يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع

---

(١) المثل السائر ( بولاق ) ٤٤ .



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خير من إخراجها في ألفاظ قبيحة مستكرهة . ولو أراد واضع اللغة خلاف ذلك لما قلدناه » .

وللبلاغة خصائص أهمها الوضوح أو جلاء المعنى ، والايقاع أي حسن التناسب بين أجزاء الجملة ، والإثارة أي المقدرة على إذكاء العواطف وتحريك القوى التخييلية والفكرية ، ثم الإيحاء أو الإيماء الى معان وراء المعاني القريبة .

فلو تحرّينا هذه الخصائص وسواها من الناحية العقلية لرأيناها ترتكز على الأسس التالية :

١ — ان العقل يضطرب أو يُجهد اذا عرضت عليه أوضاع مبهمة أو معقدة كأن تُخالَف القواعد أو توضع القيود في غير مواضعها أو يكثر تشجير العبارات وتدخلها بعضها في بعض وما الى ذلك .

خذ ما يتمثّلون به من قول المتنبي :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

أو قول أبي تمام في الخمر :

جهميّة الأوصاف إلا أنهم قد لقّبوها جوهر الأشياء

أو قول بعض المتكلمين في صفة الله تعالى :

« لا يقاس بالقياس ولا يدرك بالألماس »

ففي بيت المتنبي اضطراب في ترتيب الكلام . وفي بيت أبي تمام تعمية واستبهام لأن الوصف بالجهمية لا يدل على شيء يصح أن تشبه به الخمر أو تنسب اليه [1] .

وفي قول القائل « لا يدرك بالألماس » خروج عن القواعد لجمعه المصدر لمس وانما فعل ذلك ليصبح له السجع » [2] .

(١) الصناعتين للعسكري ٢٥ . (٢) الصناعتين للعسكري ٢٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٢ — ان العقل أسرع الى إدراك الخاص منه الى إدراك العام . فقولنا « أرض تفيض لبناً وعسلاً » أوضح من قولنا أرض تفيض خيراً أو أرض كثيرة الخصب . وقولنا اشترك في حفر البئر أيادٍ كثيرة يصور لنا من هيأة العمل ما لا يصوره قولنا عمال كثيرون .

على أنه اذا أردنا التعبير عن فكرة غير محدودة أو صورة غير معينة فاستعمال العام أولى من استعمال الخاص . فاذا وصفت مثلاً نزهة لك بين البساتين العطرة الأريج لا تخصّص فتقول ذهبنا الى البساتين لاستنشاق الورد أو القرنفل بل تعمم فتقول لاستنشاق الرياحين .

٣ — ان العقل أسرع الى إدراك النسبة بين متغايرين . ففي قول الشاعر :

فالوجه مثل الصبح مبيضٌ والشعر مثل الليل مسودُّ

طباق بين البياض والسواد يجعل كلاً منهما أوضح للذهن . وذلك ما تراه أيضاً في :

الاستفهام البياني : كقول الخطيب — « هل الحياة أفضل من أن تبذل في سبيل الحرية » ؟

وفي التهكم : كقول الشاعر يذم سيداً كان أسود الوجه مريء الخلق وكان لشدة غروره بنفسه يقول اني خلقت من نار وخلق سائر البشر من طين .

ان قلت من نار خلقت وفقت كل الناس فهما
قلنا أصبت فما الذي أطفاك حتى صرت فحما

٤ — ان العقل يرتاح الى لحظ النسبة بين الأشباه والنظائر . وعلى ذلك جمال الكلام المجازي والبديع اللفظي وهو باب واسع وسنعرض له بعد .

٥ — ان العقل يزداد تأثره واستتاعه اذا شوق الى غرض ما . والمشوّقات مختلفة منها تقديم القيود على المقيدات وتكريرها كقولك :



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

«لا في هذا ولا ذاك بل في كذا وكذا تجد ما تروم» ـ أو قولك تصف شخصاً شريفاً ـ في الحرب وفي السلم . في البيت وفي الحياة العامة بلغ فلان غاية الشرف . ومن المشوقات ما تجده في القصة من عقدة خلابة يهفو الذهن الى حلها . وما يستعين به الخطيب أحياناً من أسئلة مثيرة تحول الذهن الى غرضه الخاص .

٦ — ان العقل ينجذب عادة الى غير المعتاد . وهذا هو أساس البلاغة في الالتفات والتعجب والاستفهام والاختصاص والقصر وتقديم ما حقه التأخير أو تأخير ما حقه التقديم وما الى ذلك .

٧ — ان العقل يرتاح الى التنوع المعتدل في الفكر والأسلوب . أما في الفكر فيطلب تجنب الاطالة المملة في أي نوع من أنوع الكلام . فكم من كتاب أو رسالة تفتر النفس عند قراءته فيضيع تأثيره لإفراط الكاتب في وصف وإطالته في شرح وحمله الذهن على وتيرة بلازمها حتى درجة الإبرام .

وأما في الأسلوب فيقتضي أن لا تعلق تعلقاً طويلاً بسجع أو توازن أو بديع لما في ذلك من إجهاد للقوى المتأثرة بضعفها وبالتالي يمنعها من التمتع بالكلام . على ان التنوع لا يعني الاستطراد والخروج عن الموضوع كما يفعل بعض الكتاب ، بل يعني عرض الفكر على طريقة الإيجاز في غير إخلال والإطناب في غير تطويل .

٨ — ان العقل ينتظر توالي المعاني توالياً منطقياً فهو لذلك يضطرب اذا خرجت عن ذلك لغير داع موجب . ومن الترتيب المنطقي ما يلي :

(١) الوضع المكاني حيث يجيء وصف الأماكن بطريقة منطقية لا تشويش فيها ولا اضطراب .

(٢) الوضع الزمني ويتناول ترتيب الحوادث وارتباطها حسب مقتضيات التاريخ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٣) الوضع السببي أي ارتباط السبب بالمتسبب ووجود أحدهما عند وجود الآخر .

واذا نظرت في أوجه الكلام وجدت أن الانشاء الوصفي يرتب الكلام طبقاً للمنطق المكاني ، والإنشاء الإخباري طبقاً للمنطق الزمني ، أما في البحث والتحليل والعرض فلا بد من اعتبار الروابط السببية والنظر في أوجه المشابهة والمضادة .

## المحسنات البيانية وتبويبها المنطقي

رأينا أن مقاييس البلاغة لم توضع اعتباطاً ولا توقيفاً بل ترجع الى اعتبارات نفسية عامة . وقد اهتم علماء العربية قديماً بهذه المقاييس وتدارسوها في أقسامها الثلاثة المعاني والبيان والبديع وافتنّ الشعراء والمنشئون في التأنق بصورها . على أن العلماء مع توفرهم على درسها وشرحها لم يعنوا بتبويبها تبويباً منطقياً يسهل على الباحث فهم حقيقتها والرجوع الى أصولها . وقد رأينا أن نقترح هنا عرضها تحت الأبواب الرئيسية التالية :

باب التعادل : ويراد به تماثل الفقرات في الجمل وزناً وتركيباً وقد يسمّى الازدواج وهو نوعان ـ عاطل ومقفى . ويدخل تحت العاطل :

(١) التوازن : وهو أن يكون الكلام ذا فواصل متساوية الوزن كالآية « وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم » .

(٢) المماثلة : وهي أن تكون جميع الألفاظ في الفقرات متساوية الوزن نحو :

سهل خلائقه ، صعب عرائكه . جمٌّ غرائبه في الحكم والحكم

أما المقفى فيدخل فيه ما يلي :

(١) السجع : وهو معروف ويقوم على تفقيه الفواصل .

(٢) التسميط : وهو أن يكون الكلام أربعة أجزاء ثلاثة منها على سجع والرابع مختلف كهذا البيت .

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ — الترصيع : أي مقابلة كل لفظة في العبارة بمثلها في الثانية وزناً وروياً ، نحو :

يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه .

٤ — التزاوج : أي ازدواج الفواصل المسجعة نحو :

فاني مؤمل غمام غير جباه ، ومعمل حسام غير كهام .

وقس على هذه الأنواع سواها .

باب التواطؤ اللفظي : وهو أن تكون الألفاظ على جرس واحد أو من أحرف متشابهة سواء اختلفت في المعنى أم لم تختلف . وتقوم بلاغتها على تنبيه الذهن الى المعنى بمعارضة اللفظين المتجانسين وعلى ما فيها من حلاوة موسيقية ناشئة عن تجانس الحروف وتآلفها .

ويدخل في هذا الباب ما يلي :

(١) الجناس : وهو أنواع كثيرة منها التام والمركب والملفق والمذيل والمصحف والمقلوب والمحرف واللاحق والمطرف والمتم وغيرها ..

(٢) التورية : نحو قول الشاعر :

قالت وهبت لك السواك فقلت لا ولماك مالي حاجة بسواكِ

(٣) التصدير : أورد العجز على الصدر نحو :

فأجبتها ان المنية منهلٌ لا بد أن أسقى بذاك المنهلِ

(٤) العكس : نحو :

فلولا دموعي كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموع

(٥) الجمع مع التفريق : أي الجمع بين شيئين في حكم واحد ثم التفريق بينهما في ذلك الحكم . نحو :

تشابه دمعانا غداة فراقنا مشابهة في قصة دون قصةِ

فوجنتها تكسو المدامع حمرةً ودمعي يكسو حمرة اللون وجنتي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(٦) المجاورة : تردد لفظين ووقوع كل منهما بجانب الآخر أو بقربه . نحو :

إنما يغفر العظيم العظيم .

ونحو : « صدّعوا صدور العوالي في صدور الكتائب »

(٧) الطي والنشر :

فلذا تروي وتروي ذا صدى وحديثاً عن فتاة الحي حي

ويجوز أن يلحق بهذا الباب لزوم ما لا يلزم وما الى ذلك من أنواع التجانس اللفظي ، ويراد بلزوم ما لا يلزم أن تأتي القافية على أكثر من روي واحد ، وقد اشتهر بذلك المعري في ديوانه المعروف باللزوميات .

باب التواطؤ المعنوي : ويتناول ما كان فيه مشابهة بين شيئين ومن ذلك :

(١) التشبيه والتمثيل والاستعارة وهي معروفة لا تحتاج الى شرح بل عليها يقوم علم البيان .

(٢) مراعاة النظير .

(٣) تجاهل العارف . كقول الشاعر :

سلا ظبية الوادي وما الظبي مثلها وان كان معقول الترائب أكحلا

أأنت أمرت الصبح أن يصدع الدجى وعلمت غصن البان أن يتميلا

وقول ابن الفارض :

أبرق سري من جانب الغور لامعُ أم ارتفعت عن وجه ليلي البراقعُ

باب المغايرة : وهي عكس المشابهة ويراد بها الجمع بين المتضادات أو أشباهها .

ويدخل فيه :

(١) المقابلة : أو التنظير بين ما يوافق وما يخالف كقولهم :

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجلِ

(٢) المطابقة : أي الجمع بين لفظين متضادين كقول البحتري :

ان أيامه من البيض بيضٌ ما رأين المفارق السود سودا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(٣) الطرد والعكس :

مودته تدوم لكل هولٍ وهل كلُّ مودته تدومُ

(٤) التهكم : وهو ما كان ظاهره جداً وباطنه هزل :

(٥) الاستفهام البياني نحو :

أمصلحة الفرد أفضل أم مصلحة الجمهور .

(٦) التعاير : أي مدح ما هو مذمومٌ وذم ما هو ممدوح لغرض . كقول ابن الفارض :

يهوى لذكر اسمه من لجَّ في عذلي سمعي وان كان عذلي فيه لم يلجِ

(٧) السلب والايجاب : وهو أن تبني الكلام على نفي الشيء من جهة واثباته من جهة أخرى[1] كقولهم :

لا تعجب من المخطئ كيف أخطأ بل اعجب من المصيب كيف أصاب .

وقد يدخل تحت هذا الباب المناقضة والاستدراك والاستثناء والمحاورة والتردد وغير ذلك من هذه المقابلات .

باب الخروج عن المعتاد : وهو يشمل ما يلي :

(١) المجاز المرسل : أي تجسيم المجردات أو تفعيل ما لا يفعل مثل :

مررت على المروءة وهي تبكي . وقوله : حتى رجعت وأقلامي قوائل لي فبكاء المروءة ونطق الأقلام أمر غير عادي .

(٢) التجريد : ان يخاطب الإنسان نفسه كأنها شيء مستقل عنه كقول المتنبي

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا

(٣) الالتفات : أو الانتقال المفاجئ من صيغة الى صيغة أو من ضمير الى ضمير . نحو :

---

(١) الصناعتين ٣٢٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد الخ » وهو كثير في القرآن .

(٤) تقديم ما حقه التأخير وبالعكس تأخير المتقدم . نحو : « وربّك فكبر » عظيمة هي أعمالك يا رب .

(٥) الغلو والمبالغة : نحو :

أضاءت لهم أجسامهم ووجوههم دجى الليل حتى نظّم الجزع ثاقبه

وقول ابن الفارض :

كهلال الشك لولا انه ان عيني عينه لم تتأي

ويدخل في هذا الباب كثير من غرائب الصنعة البديعية كقصيدة الحريري التي مطلعها :

يا خاطب الدنيا الدنيئة إنها دار الردى وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غداً تبّاً لها من دار

فهي من بحر الكامل ولكنك تستطيع أن تسقط منها الجزئين الأخيرين من كل بيت فيصبح من مجزوء الكامل وتتحول قافيتها الى حرف الدال . فتقول :

يا خاطب الدنيا الدنية إنها دار الردى
دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غدا

وقد لحظ ذلك بعض القدماء في بيتين للأخطل[1] :

وللبديعيين في مثل هذه الصنعة فنون شتى كلها من باب الخروج عن المعتاد ويقوم تأثيرها على ما فيها من غرابة معنوية أو لفظية .

---

(١) راجع طبقات الشعراء لابن سلام ( طبعة السعادة مصر ) ١٦٨ والبيتان هما :

ولقد علمت اذا الرياح تروحت هدج الرئال تكبّهن شمالا
انّا نعجّل بالسبيط لضيفنا قبل العيال ونقتل الابطالا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

باب الايحاء الى غرض : ومما يدخل فيه :

(١) الكناية والاستخدام والتعريض : وهي معروفة لا تحتاج الى تبيان .

(٢) التوجيه : وهو أن يكون للكلام معنيان مختلفان يجوز اعتبار أحدهما : كقول المتنبي لكافور :

ومالك تعنى بالأسنة والقنا وجدك طعان بغير سنان

فقد يحمل على أن حسن طالعك يفعل ما لا تفعله الأسنة وهو مدح ، أو أنك رجل محظوظ لست من أهل الشجاعة والإقدام وهو ذم .

(٣) الاكتفاء : وهو أن يكون الكلام متعلقاً بمحذوف مفهوم . كقول الشاعر :

لا يعلم الشوق إلا .. ولا الصبابة إلا .. ـ أي إلا من يكابد ذلك .

وقول الآخر :

راموا فطامي عن هوى غذّيته طفلاً وكهلا
فوضعت طوقي في يديّ وقلت خلّوني وإلاّ ...

(٤) الاتفاق : كقول ابن الساعاتي يصف اقتحام صلاح الدين ( واسمه يوسف ) لحصن اسمه « بيت يعقوب » في القدس :

« دعوا بيت يعقوب فقد جاء يوسف »

وهو يعني دعوا الحصن فقد جاء فاتحه ، وقد وافق ذلك كون النبي يوسف هو ابن يعقوب فهو أولى ببيته من سواه .

(٥) الاشارات اللغوية والعلمية : وهي باب واسع ومن أمثلته :

يا ساكنًا قلبي المعنّى وليس فيه سواك ثاني
لأيّ معنى كسرت قلبي وما التقى فيه ساكنان

وقول أحد المحدثين :

ونحويّةٍ ساءلتها أعربي لنا حبيبي عليه الحب قد جار واعتدى
فقالت حبيبي مبتدا في كلامنا فقلت لها ضمّيه إن كان مبتدا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(٦) الادماج : وقد يسمى التعليق وهو أن يدمج الشاعر أو الكاتب غرضاً له ضمن معنى آخر ليوهم السامع أنه لم يقصده وانما عرض في كلامه تتمة للمعنى الرئيسي. كقول المتنبي :

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا وأسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له نعماك فيهم اتمها ودع أمرنا ان المهم المقدم

فهو أدمج شكواه في تهنئة الممدوح وقد تلطف في الطلب مع صيانة النفس. والمدح هو المعنى الرئيسي والطلب هو المعنى الفرعي المدمج فيه.

(٧) التذييل : كقول النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب ؟

والمعنى مستوفى قبل العبارة الاستفهامية ولكن الشاعر ذيله بالاستفهام ليزيد المقصد ايضاحاً.

(٨) التتميم : كالآية «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا» فقوله على حبه تتميم للمعنى يزيده قوةً وتوكيداً.

وقول زهير :

من يلق يوماً ـ على علاته ـ هرماً يلق السماحة فيه والندى خلقا

فقوله على علاته تتميم وتوكيد لكرم الممدوح.

وقس على ما ذكرنا ما لم نذكر مما يحتوي معنى الإيماء.

( بيروت ) أنيس المقدسي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net